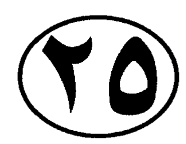
قصصُ الأنبيَاءِ للأطفالِ



مُحَمَّد

(صلَّى اللَّهُ عَليهِ وسلَّم)

الجزء الرابع

بقلم/ ناصر عبد الفتاح

الناشر
دار التقوى
للنشر والتوزيع

الكتاب:
قصص الأنبياء للأطفال
(محمد ﷺ - ٤)
المؤلف:
ناصر عبد الفتاح
الناشر:
دار
التقوى
للنشر والتوزيع
٨ شارع زكى عبد العاطى
(من شارع عمر بن الخطاب)
عرب جسر السويس - القاهرة.
ت: ٢٩٨٩٩٤٣
المدير المسئول/ محاسب
عبد الناصر إبراهيم إمام

الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥م
الطبعة الثانية
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦م
رقم الإيداع: ١٧١٧٦ / ٢٠٠٤
I. S. B. N. 977-5840-25-2
كمبيوتر:
آرمس - ت: ٧٩٦٤٤٠٤

صاحَ رجالٌ من قبيلةِ خُزاعةَ : نحنُ فِي عقدِ محمدٍ وعَهدِه.

وصاحَ رجالٌ مِن بنِي بكرٍ : نحنُ فِي عقدِ قريشٍ وعهدِهِم.

قَالَ سُهَيْلٌ لِلْنَّبِيِّ ﷺ : إنَّكَ تَرْجِعُ عَنَّا فِي عَامِكَ هَذَا فلاَ تَدْخُلَ عَلَيْنَا مَكَّةَ ، وإنَّهُ إذَا كَانَ عَامَ قَابِلَ (قَادِمَ) خَرَجْنَا عَنْهَا فَدَخَلْتَهَا بأصْحَابِكَ ، فَأَقَمْتَ بِهَا ثَلاَثًا مَعَكَ سِلاَحُ الرَّاكِبِ ، السُّيُوفُ فِي القربِ : لاَ تَدْخُلْهَا بِغَيْرِهَا.

وَفِي تِلْكَ اللحْظَةِ أَقْبلَ أَبُو جَنْدَل بن سُهَيْل بنِ عَمْرو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ وَانْضَم للمسْلمينَ ، فَجَذَبَهُ أبوه ، فَقَالَ الرسُولُ ﷺ : «إنَّنَا لَمْ نَقْضِ (نُنْهِي) الكِتَابَ بَعْد ..». لَكِنَّ سُهَيْلاً ضَرَبَ ابْنَه فَصَرَخَ أَبُو جَنْدَلٍ ، وقَالَ : أأُرَدُّ إلَى المشْركِينَ يَضْرِبُونِي فِي دِينِي؟

فَقَالَ الرسُولُ ﷺ : « يَا أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ واحْتَسِبْ ، فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ المسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، إنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ صُلْحًا ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللهِ فَلاَ نَغْدِر بِهِمْ.

حَزِنَ بَعْضُ الصَّحَابةِ ، لأنَهَّمُ منِعُوا مِنْ زِيارَةِ الكَعْبَةِ ، وتَأَلَّمَ

عُمَر بنُ الخطَّاب وَتَسَاءَلَ : يَا رَسُول الله ، أَلَسْتَ بِرسُول الله ؟ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ : بَلَى .

قَالَ عُمَرُ : أَوَلَسْنَا بِالمسْلمينَ ؟ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ : « بَلَى »

قَالَ عُمَرُ : أَلَيْسُوا بالمشْركينَ ؟ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ : بَلَى .

تَعَجبَ عُمَرُ ، لأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَبِلَ الصُّلْحَ ، وَخَشى أَنْ يظُنَّ المشْركُونَ ذَلكَ ضَعْفًا وخُضُوعًا ، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ : أَنَا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ ، لَنْ أُخَالفَ أَمْرَهُ وَلَنْ يُضيِّعَني .

وَأَنْزَلَ الله تَعَالَى : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ۝١ ﴾ [الفتح]

تَسَاءَلَ عُمَرُ : أَوَفَتْحٌ هُوَ ؟

قَالَ الرَّسُولَ ﷺ : نَعَمْ .

وَفَهِمَ عُمَرُ أَنَّ تلْكَ الهُدْنَةَ فَتْحٌ وَنَصْر ، لأَنَّهَا هَيَّأَتْ الفُرْصَةَ لتفرُّغِ الرَّسُولِ ﷺ لِلْدَّعْوَة الإِسْلامِيَّةِ فِى شَتَّى أَقْطَارِ الجزيرَةِ وَخَارِجَهَا .

وَأَسْلَمَ عَدَدٌ منْ أهْل قُرَيْشٍ ، فَرَدَّهُمُ الرَّسُولُ ﷺ تَنْفيذًا لمعَاهَدَة الحُدَيْبِيَة ، إِلاَّ أَنَّهُمْ مَكَثُوا فِى الطَّريقِ يَعْترضُونَ قَوَافلَ قُرَيْشٍ ، فَاسْتَغَاثَتْ بِالنَّبِيِّ ﷺ تَرجُوهُ أَنْ يَقْبَلَ مَنْ جَاءَ مُسْلمًا وَلاَ يردَّه .

وَانْضَمَّ إِلَى قَافِلَة المسْلمينَ عَمْرُو بنُ العَاصِ ، وَخَالد بنُ الوليد ، وَعُثْمَانُ بنُ طَلْحَةَ .

فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « إِنَّ مكَّةَ قَدْ أَلْقَتْ إِلينا أَفْلاذَ كَبدِهَا » .

أَرْسَلَ النبىُّ ﷺ رَسَائِلَ إِلَى الملُوكِ وَرُؤسَاءِ القَبَائِلِ ، يَدْعُوهُم إِلَى الإِسْلامِ ، فَأَسْلَمَ بَعْضُهُمْ وَأَبَى آخَرُونَ .

غزوةُ خيبرَ (المحرم ٧ هـ)

عادَ النبيُّ ﷺ إلىَ المدينة بعدَ أنْ وقَّعَ معاهدةَ الحديبيةِ ، وأمنَ خطرَ قريشٍ وبدأ يعدُّ خطةً لتأديبِ يهودِ خيبرَ .

وكانتْ خيبرُ مدينةً ذاتَ حصونٍ ومزارعَ يقطنُ بهَا اليهودُ ، وكانتْ وكرًا للمؤامرات والمكائد ، فقدْ حزَّبَ أهلُهَا الأحزابَ ضدَّ المسلمينَ وهُمْ مَنْ حرضُوا بني قريظةَ علَى الغدرِ والخيانة ، كمَا أنَّهُمْ تآمرُوا معَ المنافقينَ وانتهىَ بِهُم الأمرُ أنْ وضعُوا خُطةً لقتلِ الرَّسول ﷺ .

أعدَّ الرَّسولُ ﷺ جيشًا قوامُهُ ألفٌ وأربعمائة جنديً وزحفَ إلى خيبرَ ، إلاَّ أنَّ عبدَ اللَّهِ بن أُبى زعيمَ المنافقينَ أرسلَ إلى يهودِ خيبرَ :

إنَّ محمداً قصدَ قصدكُمْ وتوجَّه إليكُمْ ، فخذُوا حذرَكُمْ ولا تخافُوا منه ، فإنَّ عددَكُمْ وعدتَكُمْ كثيرةٌ ، وقومُ محمدٍ شرذمةٌ (جماعة) قليلونَ عُزّل ، لا سلاحَ معَهم إلاَّ القليلُ .

استنجدَ يهودُ خيبرَ بقبيلةِ غطَفانَ على حربِ المسلمينَ نظيرَ منحِهم نصفَ ثمارِ خيبرَ .

تهيأتْ غطفانُ وخرجتْ جمُوعُهم نحوَ خيبرَ ، إلا أنَّهُمْ ترددُوا وألقَى اللَّهُ في قلوبِهم الرُّعبَ وخشُوا أنْ ينقضَّ النبيُّ ﷺ بجيشِهِ عليهِم فارتدُّوا عائدينَ .

اخترقَ جيشُ المسلمينَ الصحراءَ وسلكَ النبيُّ ﷺ طريقًا يمكِّنه من دخولِ خيبرَ منْ جهةِ الشمالِ ، حتَّى يمنعَ اليهودَ من الفرارِ إلى الشامِ ويحُولَ بينَهُمْ وبينَ غطفانَ .

اقتربَ الجيشُ من خيبرَ ، فأقامَ معسكرَه ودعَا النبيُّ ﷺ : «اللهُمَّ ربَّ السماواتِ السبعِ ، وما أظلَلْنَ ، وربَّ الأرضينَ وما أقلَلْنَ وربَّ الشَّياطين وما أضْلَلْنَ ، فإنَّا نسألُكَ خيرَ هذهِ القريةِ وخيرَ أهلِها ، وخيرَ ما فيها ، ونعوذُ بكَ من شَرِّ هذهِ القريةِ وشَرِّ أهلِها ، وشَرِّ مَا فيها .. اقدمُوا باسمِ اللَّه» .

وانقضَّ جيشُ المسلمينَ علَى حصونِ اليهودِ يفتحُها حصنًا وراءَ الآخرِ ، وفرَّ الأعداءُ إلى أقوىَ حصُونِهمَا الوطيحِ والسلالمِ ، خرجَ

زعيمُهم مُرحبٌ اليهوديُّ ودعَا إلى مبارزة، برزَ الصحابيُّ محمدُ بنُ مسلمةَ وحَمَل على مرحبٍ فقضيَ عليه. ووثبَ ياسهُ أخو مرحبٍ ودعا إلى المبارزةِ ، فانقضَّ عليه الزُّبيرُ بنُ العوَّامِ وقضى عليه.

اشتَبكَ جنودُ المسلمينَ معَ حُرَّاسِ أحَدِ الحصُونِ المنيعةِ ، ودارَ القتالُ عنيفًا حتَّى فُتِحَ الحصنُ بعدَ ثلاثةِ أيامٍ ، وحاصَر النبيُّ ﷺ آخر حُصونِ اليهودِ أربعةَ عشرَ يومًا حتَّى أيقنُوا بالهلاكِ ، فأعلنُوا استسْلامَهُم وفَتحَ اللَّهُ تعالَى خيبرَ.

قَدم جعفرُ بنُ أَبي طالبٍ من الحبشةِ يومَ فَتحِ خَيبرَ ، فقبَّلَهُ النبيُّ ﷺ وقالَ : مَا أدْرِى بأيِّهمَا أنا أُسَرُّ ، بفتحِ خيبرَ أمْ بقدومِ جعفرَ ؟

عاد النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ ، ثُم خرَجَ وأصحابُهُ في شهرِ ذى القعدة لأداء العُمرة ، صَعدَ أهلُ مكَّةَ الجبلَ حتَّى أدَّى المسلمونَ العُمرةَ ، وأقَام النبيُّ ﷺ بمكَّةَ ثلاثةَ أيامٍ ثمَّ انطلقَ عَائدًا إلى المدينة المنورةِ.

غَزوةُ مؤتةَ

(جُمادى الأولى ٨ هـ)

كتبَ النبيُّ ﷺ رسالةً إلى حَاكمِ بُصْرَى بالشَّامِ يدعوهُ فيها إلى الإسلامِ ، وبعثَ الحارثَ بنَ عُمَيرٍ الأزديَّ بالرسالةِ ، وفى الطريقِ

تعرَّضَ شُرحْبيلُ الغسَّانىُّ عَاملُ قَيْصرَ على منطقةِ البلقاءِ للحارثِ فقيَّدهُ وقَضَى عليه.

حَزنَ النبىُّ ﷺ لمقتلِ رسولهِ واستخفاف قاتله به ، فجهَّزَ جيشًا قوامُـهُ ثلاثةُ آلاف جندىٍّ تحتَ قيادة زيد بنِ حارثةَ ، وأعطاهُ لواءً أبيضَ، وقال : « إن أُصيبَ زيدٌ فجعفرُ بنُ أبى طالبٍ علَى النَّاسِ ، وإن أُصيبَ جعفرُ فعبدُ الله بنُ رواحةَ على النَّاسِ ».

ودَّع النبىُّ ﷺ الجيشَ وأوصاهُمْ قائلاً : « اغزُوا باسمِ اللَّه فِى سبيلِ اللَّه مَنْ كفرَ باللَّه ، لا تَغْدرُوا ولا تَغُلُّوا ولا تقتلُوا وليداً ولا امرأةً، ولا كبيراً فَانيًا ، ولا مُنعزلاً بصومعةٍ ، ولا تَقْطَعُوا نخلاً ولا شجرًا ولا تهدمُوا بناءً ».

انطلقَ الجيشُ فى اتجاهِ الشَّمالِ حتَّى نزلَ الشامَ ، وبلغَ المسلمينَ أنّ هرَقْلَ مَلكَ الرومِ حَشدَ جيشًا قوامُهُ مائتا ألْفِ جندىٍّ .

تحيرَ المسلمونَ وأقامُوا ليلَتيْنِ فى مُعسكرهم يُفكّرونَ فى أمرهِمْ ... ثلاثَةُ آلاف مُسْلمٍ أمَام مائَتى ألفِ مُشركٍ. وتساءَلَ البعضُ : كيفَ نَقْهَرُ أقْوى دولةٍ عُظْمَى فِى العَالمِ يَدينُ لهَا كثيرٌ منَ البلادِ والقَبائلِ العربيةِ بالولاءِ والطاعة.

وأخيراً قالوا : نكتبُ إلى رسُولِ الله ﷺ فنُخْبرهُ بعَدد عَدُوِّنا ، فإمَّا أن يُمدَّنا بالرجالِ ، وإمَّا أن يأمُرَنا بأمْرِه فنمضى لهُ.

صاحَ عبدُ اللَّه بنُ رواحَة معترضًا : يا قوم . . . واللَّه إنَ التى تكرهُونَ لَلَتى خَرجْتُم تَطْلُبون الشَّهَادةَ ، ومَا نقاتلُ الناسَ بعددٍ ولا قُوةٍ ولا كثرةٍ ، ما نُقاتلهُمْ إلا بهذَا الدينِ الَّذى أكرَمَنا اللَّهُ به ، فانطلقُوا فإنَّما هِي إحدَى الحُسنييْنِ ، إما ظهورُ نصرٍ وإمَّا شهادةٌ .

قال الناسُ : صدقَ واللَّه ابنُ رواحةَ .

واخترقَ المسلمونَ أرضَ الرومِ ، وانْقضُّوا على الأعداءِ فى شجاعَةٍ رهيبةٍ ، واستبسَلَ الآلافُ الثلاثةُ أمامَ المائتى ألْفٍ . . اخترقَ زيدُ بنُ حارثةَ صفوفَ الأعداء ، والرايةُ البيضاءُ فى يده ترفرِفُ عاليًا ، وسيفُهُ يفرِّقُ الجنودَ . . مكثَ زيدٌ يقاتلُ حتى استُشهدَ فتناولَ جعفرٌ الرايةَ ورفعَهَا عاليًا ، وانقضَّ على الأعداءِ يمزقهُمْ حتىَ استُشْهِدَ .

أخذَ عبدُ اللَّه بنُ رواحةَ الرايةَ ووثبَ علىَ الأعداءِ فى بسالةٍ شديدةٍ حتَّى استُشهدَ . . تناولَ سيفُ اللَّه خالدُ بنُ الوليدِ الرايةَ وقاتلَ قتالاً مريرًا ، وانقضَّ علَى الأعداءِ كالأسدِ الغاضبِ حتَّى انكسرَ فى يده تسعةُ سيوفٍ ، وصمدَ المسلمونَ أمامَ الرُّومانِ حتَّى هبطَ الظَّلامُ وتفرقت الجنودُ .

قضَى خالدُ بنُ الوليدِ الليلَ ساهرًا قلقًا يفكرُ فى خطةٍ لإنقاذِ المسلمينَ والعودةِ بالجيشِ سالمًا دون أن يتعقبَهُ الرومانُ .

وَفى الصباحِ اشتبكَ الجيشانِ واشتدَّ القتالُ ، وبدأ خالدٌ يتأخرُ بجيشهِ إلى الخلف ، فظنَّ الرومانُ أنَّ المسلمينَ يَخْدَعُونَهم ويستدرجونَهم إلى الصحراءِ حتَّى ينفردُوا بهمْ ، فخافُوا أنْ يتعقبُوهُمْ .

عادَ خالدٌ بالجيشِ إلى المدينة بعدَ أنْ وجهَ إنذارًا خطيرًا إلى الرومانِ أكبرِ قوةٍ فى العالمِ فى ذلكَ الوقتِ .

فتحُ مكَّةَ

اعتدتْ بنُو بكرٍ علَى قبيلةِ خُزاعةَ ، وأمدتْ قريشٌ بنى بكرٍ بالسِّلاحِ ولمْ تجرؤ علَى القتالِ معَهُمْ إلاَّ فى اللَّيلِ لأنَّ خزاعةَ فى حلفِ الرَّسولِ ﷺ ، وقدْ نصتْ معاهدةُ الحُديبيةِ علَى ألا يتعرضَ بنو بكرٍ وقريش إلى المسلمينَ وخزاعةَ ، وبذلكَ خرقتْ قُريشٌ المعاهدةَ .

جاءَ الخبرُ إلى النَّبىِّ ﷺ فاشتدَّ غضبُه ، وقررَ أنْ يقومَ بعملٍ حاسمٍ ، وندمتْ قريشٌ علَى الجريمةِ الَّتى ارتكبتهَا ، فأرسلتْ أبا سفيانَ إلى الرَّسولِ ﷺ يُصالحهُ ويسترضيه .

قَدمَ أبُو سفيانَ المدينةَ وأتى الرَّسولَ ﷺ وخاطَبه ، لكنَّهُ لمْ يردْ

عليــه ، ذهبَ الرجلُ إلى أبى بكـرٍ ورجـاه أنْ يُكلِّمَ الرَّســولَ ﷺ فقالَ : مَا أنا بفاعلٍ.

انطلقَ الرجلُ إلى عمرَ بن الخطاب وكلَّمهُ فقالَ لهُ : ويحكَ يا أبَا سفيانَ ، لقدْ عَزمَ رسولُ اللهِ ﷺ علَى أمرٍ مَا نستطيعُ أنْ نكلمَه فيه.

وعندئذٍ أظلمتْ الدُّنيا أمامَ عينى أبى سفيانَ ، فعادَ إلى مكَّةَ يجرُّ أذيالَ الخيبة .

أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَه بالتجهُّزِ والاستعدادِ للرحيلِ ثُمَّ دعَا اللَّهَ : « اللهمَّ خُذْ العيونَ والأخبارَ عَن قريشٍ حتَّى نبغتَها (نفجأها) فِى بلادِها » .

غادَر النبىُّ ﷺ المدينةَ فِى رمضانَ عام ٨ هـ فى عشرةِ آلافٍ مِن الصحابةِ متجهًا إلى مكَّةَ ، وفِى الطريقِ لقيه العباسُ بن عبدِ المطلب وأهله وأسلمُوا جميعًا ، ثُمَّ قابله ابنُ عمِه أبُو سفيانَ بن الحارثِ وابن عمِه عبد اللَّهِ بن أميةَ فأسلمَا .

اقتربَ الجيشُ مِن مكَّةَ فخشىَ العباسُ علَى قومِه وبحثَ عنْ أحدٍ مِن العربِ يخبرُ قريشًا بتحركِ الرسولِ ﷺ حتَّى يخرجُوا إليه قبلَ دخولِ مكَّةَ فيطلبُوا منه العفْو والأمانَ .

وبينمَا العباسُ يسيرُ إذْ سمعَ صوتَ أَبى سفيانَ ، فقالَ لهُ : هذَا رسولُ اللهِ ﷺ فِى النَّاسِ.

قالَ أبُو سفيانَ : فمَا الحيلةُ ؟ فداكَ أَبى وأُمى.

قالَ العباسُ : اركبْ خلفى حتَّى آتى بكَ رسولَ اللهِ ﷺ فأستأمنُهُ لكَ ، انطلقَ العباسُ إلى الرَّسولِ ﷺ وقالَ لَهُ : إنى قدْ أجرتُ أبَا سفيانَ.

فقالَ الرسولُ ﷺ : اذهبْ بهِ يا عباسُ إلى رحلِكَ ، فإذَا أصبحتَ فأتنى بهِ.

ومعَ نسماتِ الصباحِ أسرعَ أبُو سفيانَ إلى الرسولِ ﷺ وأسلمَ بينَ يديهِ ، قالَ العباسُ: يا رسولَ اللهِ ، إنَّ أبا سُفيانَ رجلٌ يحبُّ الفخرَ فاجعل لَهُ شيئًا.

قالَ الرسولُ ﷺ : « نعمْ ، مَنْ دَخلَ دار أَبى سُفيانَ فهُو آمنٌ ، ومَنْ أغلَقَ بابَه فهو آمنٌ ، ومَنْ دَخلَ المسجدَ الحرامَ فهوَ آمنٌ ».

اشتدَّ فرحُ أَبى سفيانَ ، ووقفَ مشدوهًا مذهولاً وجيشُ المسلمينَ يمرُّ أمامَه ، وحينَ مرتْ كتيبةُ الرَّسولِ ﷺ وفيها المهاجرونَ والأنصارُ قالَ:

مَا لأحدٍ بهؤلاءِ قِبَلٌ ولا طاقَةٌ ، واللهِ يا أبَا الفضلِ (العباس) لقدْ أصبحَ مُلكُ ابنِ أخيكَ الغداةَ عظيمًا.

قالَ العباسُ : يا أبَا سُفيانَ ، إنها النبوةُ .

قالَ أبُو سفيانَ : فنعمْ إذنْ .

قالَ العباسُ : النجاءَ (الإسراع) إلى قومكَ .

وانطلقَ أبُو سُفيانَ إلى قريشٍ وصرخَ بأعلَى صوتهِ : يا معشرَ قريشٍ ، هذَا محمدٌ قدْ جاءَكُمْ فِيمَا لا قِبلَ لكُمْ به ، فمنْ دخلَ دارَ أبِي سُفيانَ فَهوَ آمنٌ ، ومنْ أغلَقَ عليهِ بابَهُ فهوَ آمنٌ ، ومنْ دخلَ المسجدَ الحرامَ فهَو آمنٌ .

هرعَ النَّاسُ يختبِئُون فِي بيوتِهِم والمسجدِ ، بينمَا خرجتْ جماعةٌ من المشركينَ وكمنُوا علَى جانبى الطريقِ للغدرِ بالمسلمينَ .

وتحركَ جيشُ الرَّسولِ ﷺ داخلاً مكَّةَ وأوصَى الرسولُ ﷺ أصحابَه ألا يُقاتلُوا ، وأحبطَ جندُ اللهِ مؤامرةَ الغَادرين .

دخلَ النبيُّ ﷺ المسجدَ وقبَّلَ الحجرَ الأسودَ ، ثُمَّ طافَ بالكعبةِ ، وكانَ حَولَها ثلاثُمائةٍ وستُّون صنمًا .

أخذَ الرسولُ ﷺ يطعنُ الأوثانَ بقوسهِ فتتساقطُ على وجوهِهَا وهوَ يقولُ : « جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كانَ زهوقًا » ، وأخذَ محمدٌ مفتاحَ الكعبةِ من عثمانَ بن طلحةَ ودخلها وأمرَ بمحو صورِ الأنبياءِ المرسومةِ داخلها ، ثُمَّ صلَّى فِي الكعبةِ وقالَ : « لاَ إله إلا اللهُ

وحدهُ لا شريكَ لهُ ، صدقَ وعدَه ، ونصرَ عبدَه ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ» .

نظرَ النبيُّ ﷺ إلى المشركينَ وقدْ نكسُوا رءوسَهم في ذلٍّ وخضوعٍ ينتظرُونَ مصيرَهُمْ ، وتساءلَ : يا معشرَ قريشٍ ، ما ترونَ أني فاعلٌ بكُمْ ؟

قالوا : خيرًا ، أخٌ كريمٌ ، وابن أخٍ كريمٍ .

قال الرسولُ ﷺ : « اذهبُوا فأنتُمُ الطلقاءُ » .

تعجَّبَ القومُ وأصابَهم الذهول ... أيعفُو عنْهم الرَّسولُ ﷺ بعدَ أنْ آذوْهُ وحاولُوا قتلَهُ ، أيعفُو عنْهم بعدَ أنْ أخرجُوه من بلدِه ، أيعفُو عنهم بعدَ أنْ عذبُوا المؤمنينَ وقتلُوهم ، أيعفُو عنْهم بعدَ الحروبِ الَّتي خاضُوهَا ضدهُ ، وهرعَ القومُ يدخلونَ في دينِ اللهِ أفواجًا ، وجلسَ الرسولُ ﷺ في المسجدِ ، ثُمَّ ردَّ مفتاحَ الكعبةِ إلى عثمانَ بن طلحةَ ، وقالَ : هاكَ مفتاحكَ يا عثمانُ .. اليومُ يومُ برٍّ ووفاءٍ .

ارتفعَ صوتُ بلالٍ بالأذانِ في الكعبةِ يرددُ : اللَّهُ أكبرُ .. اللَّهُ أكبرُ .

غـزوةُ حـنـينٍ

اشـتـدَّ غـيـظُ بعضِ القـبـائـل العـربـيـةِ حينَ عـلمتْ بفـتـحِ مكَةَ ، وانطلقَ مالكُ بنُ عوفٍ زعيمُ قبيلةِ هوازن يحرضُ العربَ ويحشدُ الجموعَ لحربِ المسلمينَ ، فانضمتْ إليه قبائلُ ثقيفٍ ونصرٍ وجُشَمٍ وآخرون ، وساقَ مالكٌ معَ النَّاسِ أموالَهم ونساءَهم وأبناءَهم حتَّى يفنُوا أنفسَهُمْ فِي المعركةِ دونَ أنْ يفرُّوا .

وخرجَ الرسولُ ﷺ منْ مكَّةَ فِي جيشٍ عددُه اثنا عشرَ ألْفَ مُسْلِمٍ وانطلقَ إلى هوازن فِي يومِ السبتِ السادسِ من شوَّالٍ سنة ٨ هـ .

انتهَى الجيشُ الإسلاميُّ إلى حنينٍ ليلَة الثلاثاء ، وكانَ مالكُ بن عوفٍ قدْ سبقَهُمْ فوزَّعَ جيشَه فِي الوادِي والشِّعابِ والمضايقِ ونصبَ الكمائنَ ، وحينَ انحدرَ المسلمونَ لاجتيازِ وادى حنين إذَا بالسهامِ تنزلُ عليهم كالمطرِ ، وانقضَّ الأعداءُ عليهم فتراجعَ المسلمونَ ، واضطربتْ صفوفُهُمْ ، واتجهَ الرَّسولُ ﷺ جهة اليمين وهَو يقولُ : « هلمُوا إلَيَّ أيُّهَا الناسُ ، أنا رسولُ اللهِ ، أنَا مُحمَّدُ بنُ عبد اللهِ »

اقتحمَ النبيُّ ﷺ صفوفَ الكفارِ ، وهَو يقولُ : « أنا النبيُّ لا

كـذبْ ، أنَـا ابنُ عبـدِ المطلبِ » ، ودعَـا الـنبىُّ ﷺ ربَّه قـائـلاً : « اللهُـمَّ أنـزلْ نـصركَ » .

اجتـمعَ حوله مـائةُ مسلمٍ فـانقضُّوا علَى المشركينَ واشـتدَّ القـتالُ وهجمَ علىُّ بنُ أَبى طالبٍ علَى صـاحبِ راية هوازن فـقـضَى عليـه ، وتوافـدتْ جـمـوعُ المسلمينَ وأنـزلَ اللهُ جنوداً من الملائكة انقـضتْ علَى الأعـداءِ يمزقونَـهم حتَّى فـرُّوا وتركُـوا نساءَهم وأطفالَهم ، قـالَ تعـالَى : ﴿ .. ويَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ﴾ [التوبة]

فـرَّتْ مـعظمُ فـلول هوازن وثقـيـف إلى الطائفِ وتحـصنُـوا بهَـا ، فـسـارَ إليـهم النبىُّ ﷺ بجـيـشـهِ ونزلَ قـريبًـا من حـصـنِهم ، وفـرضَ الحـصـارَ علَى أهلِ الحـصنِ بضـعًـا وعشـرينَ ليلةً ، وكـانـتِ السـهـامُ تنطلقُ نحـوَ المسلمينَ من أهلِ الحصنِ فتصـيبهُمْ ، واضـطرَّ المسلمونَ إلى الابتعادِ عنْ معسكرِهم ، ونادَى مُنادى الرَّسول ﷺ :

أيُّمَـا رجلٌ نزلَ مِن الحـصنِ وخـرجَ إلينَـا فـهـو حـرٌّ ، فـخـرجَ إليـه ثلاثةٌ وعشرونَ رجلاً ، وأمرَ الرسـولُ ﷺ بالرجوعِ ، وقالَ لأصحابه : قـولُوا آيبُون تائبُـون عـابـدُونَ لربِّنا حامدُونَ ، قـالَ بعضُ المسلمينَ : يا رسولَ اللهِ ادعُ علَى ثقيفٍ .

فقَالَ : اللهمَّ اهْدِ ثقيفًا وأتِ بهِم .

اصطحبَ النبيُّ ﷺ غنائمَ هوازنَ وثقيفَ من الأموالِ والنساءِ والأبناءِ ، فلحقَ بهِ وفدٌ من هوازنَ ورجوه أنْ يتركَ نساءَهم وأبناءَهم فردَّهم إليهم وقالَ : أخبرُوا مالكًا (بن عوفٍ) أنه إنْ أتانى مسلمًا رددتُ عليه أهلَهُ ومالَهُ ، وأعطيتُهُ مائةً من الإبلِ .

طارَ الخبرُ إلى مالكٍ فقفزَ علَى فرسِهِ وأتى النبيَّ ﷺ مسلمًا فعفَا عنْهُ وردَّ إليهِ أهلهُ ومالَهُ وجعله زعيمًا على قومِهِ .

غزوةُ تبوك

لمْ ينسَ قيصرُ رومَا مَا حدثَ فِى غزوة مؤتةَ ، وكيفَ تجرأَ المسلمونَ علَى حربِ الرومِ أعظم امبراطوريةٍ فى العالمِ آنذاكَ ، وخشىَ أنْ يُشجعَ ذَلكَ باقى القبائلِ العربيةِ التابعةِ لرومَا فتستقلَّ عنْها .

وقررَ قيصرُ القضاءَ على الخطرِ الَّذى يهددُ امبراطوريتهُ ، فجهَّز جيشًا جبارًا من الرومانِ والعربِ لسحقِ المسلمينَ نهائيًا .

وترامتْ الأخبارُ إلى المدينةِ ، وتسربَ الخوفُ إلى قلوبِ الناسِ إذْ كيفَ يواجهونَ حشودَ الرومانِ ذاتَ الأسلحةِ الفتاكةِ .

وتحيَّنَ المنافقونَ الفرصةَ فبنَوْا مسجدًا وهو مسجدُ الضرارِ كي يجتمعُوا فيهِ فيعقدُوا مؤتمراتِهِمْ داخلَهُ ، دونَ أن يشكَّ فيهم أحدٌ ، ولكنَّ الرسولَ ﷺ كشفَ كيدَهُمْ وهدَمَ مسجدَهُم وأعلنَ في المسلمينَ أنْ يتجهزُوا للحربِ ، وبعثَ إلى قبائلِ العربِ .

كانتْ المهمةُ شاقةً لشدةِ الحرِّ والجدبِ آنذاكَ ، لكنَّ المسلمينَ هبُّوا يلبُّون نداءَ النبيِّ ﷺ وأقبلتْ الوفودُ من أرجاءِ الجزيرةِ إلى المدينةِ ، وتسابقَ المسلمونُ في الإنفاقِ لتجهيزِ الجيشِ فتبرعَ عثمانُ بن عفانَ بتسعمائةِ بعيرٍ ، ومائةِ فرسٍ ، وألفِ دينارٍ ، وتبرعَ أبو بكرٍ بمالِهِ كلِّه ، وعمرُ بنصفِ مالِهِ ، وتتابعَ الصحابةُ رجالاً ونساءً يقدمُونَ ما يملكُونَ لتجهيزِ الجيشِ كأحسنِ مَا يكونُ . وحانَ الوداعُ ، وتحركَ الجيشُ بآلافهِ الثلاثةِ نحوَ الشَّمالِ قاصدًا تبوكَ ، ولمْ يتخلفْ عنه سوى بعضِ المنافقينَ وثلاثةٍ من الصحابةِ .

عانَى المسلمونَ منَ الحرِّ الشديدِ والعطشِ والجوعِ ، فكانُوا يأكلُونَ أوراقَ الشجرِ ، ودعَا الرسولُ ﷺ ربَّه فأرسلَ سحابةً فأمطرتْ وارتوى المسلمُونَ .

استأنفَ الجيشُ سيرَهُ حتَّى نزلَ تبوكَ فأقامَ معسكرَه هناكَ

وخطبَ الرسولُ ﷺ خطبةً بليغةً رفعتْ معنويات المسلمين وأشعلتْ حماسَهُمْ .

مكثَتْ حشودُ الرومانِ تنتظرُ فِي قلقٍ ، وحينَ سَمِعتْ بمقدمِ جيشِ الرسولِ ﷺ أصابَهم الرعبُ ، وتفرقُوا فِي البلاد خوفًا من ملاقاته ، والتقَى بعضُ حكامِ الشَّامِ مَع الرسولِ ﷺ فصالحُوه وأعطَوه الجزيةَ ، وعادَ الجيشُ الإسلاميُّ مظفرًا منتصرًا ، ودخلَ النبيُّ ﷺ المدينةَ فصلَّى ركعتينِ بالمسجدِ ثُمَّ جلسَ للناسِ فجاءَ الصحابةُ الثلاثةُ يعترفُونَ بذنبِهِمْ فأمرَ النبيُّ ﷺ بمقاطعتِهِمْ ، وبعدَ خمسينَ ليلةً من العُزلةِ تابَ اللهُ عليهم وغفرَ لهُمْ .

وكانَ لهزيمةِ الرومِ أثرٌ عظيمٌ فِي نفوسِ العربِ ، فأقبلتْ وفودُ القبائلِ من أنحاءِ الجزيرةِ العربيةِ تُعلنُ إسلامَها ، وتدخلُ فِي دينِ اللهِ وعُرِفَ ذَلكَ العامُ بعامِ الوفودِ .

حَجةُ الوَداعِ

عاشَ المسلمونُ فرحةَ النصرِ علَى الرومِ ، وانتشرَ خبرُ الإسلامِ فِي شتىَ بقاعِ الأرضِ ، وتجهزَ النبيُّ ﷺ لأداءِ فريضةِ الحج فتوافدَ

عشـراتُ الآلافِ من المسلمينَ إلى المدينةِ لمرافقةِ الرسـولِ ﷺ في رحلةِ الحجِّ.

خرجَ النبيُّ ﷺ بعدَ ظهرِ السبتِ لأربعٍ بقين من ذى الحجةِ عام (١٠ هـ) فوق ناقته القصواءَ، ودخلَ مكةَ، وبعدَ أنْ طافَ بالكعبةِ وصلَّى خطبَ فِي الناسِ قَائلاً :

«أَيُّهَا النَّاسُ .. إنَّه لا نبيَّ بعدِى، ولا أمة بعدَكم، ألا فاعبدُوا ربكُمْ، وصلُّوا خمسكُمْ (الصلوات الخمس)، وصومُوا شهركُمْ، وأدُّوا زكاةَ أموالِكُمْ طيبة بهَا أنفسكُمْ، وتحجونَ بيتَ ربكُمْ، وأطيعُوا وُلاةَ أمرِكُمْ تدخلُونَ جنةَ ربكُمْ».

أمَّا بعدُ ... أيُّها الناسُ فإنَّ الشيطانَ قدْ يئسَ من أنْ يُعْبدَ بأرضِكُمْ هذهِ أبدًا .. وعلَّم النبيُّ ﷺ الناسَ كيفيةَ أداء الحجِّ، وحمدَ اللهَ وخطبَ قائلاً :

أَيُّها النَّاسُ، اسمعُوا قولى، فإنى لا أدرى لعلِّى لا ألقاكم بعد عامى هذَا، بهذَا الموقفِ أبداً .. أيها الناسُ إنْ دماءَكُمْ وأموالَكُمْ عَليكُمْ حرامٌ إلى أنْ تلقوا ربكم كَحُرْمةِ يومكم هذَا وكحرمةِ شهرِكُمْ هذَا، وإنَّكُمْ ستلقونَ ربَّكم فيسألَكُمْ وقدْ بلَّغْتُ، فمنْ كانتْ عندَه أمانةٌ فليُؤدِّها إلى مَنْ ائتمنه عليْهَا.

فاعقلُوا أيها الناسُ قولى ، فإنى قدْ بلَّغْتُ ، وتركتُ فيكُمْ ما إنْ اعتصمتم به فَلنْ تضلُّوا أبدًا ، أمرًا بيِّنًا ، كتابَ اللهِ وسنةَ نبيه .. أيُّها الناسُ اسمعُوا قولى واعقلوه ، واعلمُوا أن كلَّ مسلمٍ أخٌ للمسلمِ وأن المسلمينَ إخوةٌ فلا يحلُّ لامرئ إلا ما قدْ أعطاه عن طيبِ نفسٍ منه ، فلا تظلمُوا أنفسَكُمْ ، اللهمَّ هلْ بلَّغْت ؟

قالَ المسلمونَ : اللهمَّ نعمْ. قال الرسولُ ﷺ : اللهمَّ اشهدْ.

وَنَزلتِ الآيةُ : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣)** ﴾ [المائدة]

وأذَّنَ بلالُ بنُ رباحٍ فصلَّى النبىُّ ﷺ بالناسِ وأتمَّ شعائرَ الحجِّ ، فكبرَ وهللَ وطافَ بالكعبةِ ، ووقفَ على جبلِ عرفاتٍ ورمى الجمرات ، وأخيرًا عادَ إلى المدينةِ المنورة ، فجاءته الأخبارُ باستعدادِ الرومِ لحربِ المسلمينَ ، فأمرَ بتجهيزِ جيشٍ كبيرٍ بقيادةِ أسامة بن زيد .

وَفاةُ الرَّسُول ﷺ

أحسَّ النبىُّ ﷺ بقُرْب رَحيله ، وشعرَ بحنينٍ إلى أصحابه الشهداءِ ، فخرجَ إلى البقيعِ وزارَ مقابرَ الشهداءِ واستغفرَ لهُمْ ،

وعندما عادَ إلى بيته وجد زوجتَه عائشةَ تشتكى وتقولُ : وا رأساهُ، فقالَ النبىُّ ﷺ : بلْ أنا واللهِ يا عائشةُ وارأساه.

وبدأ الألمُ يشتدُّ بالرسولِ ﷺ ، وخرجَ يومًا عاصبًا رأسه حتَّى جلسَ على المنبرِ وقالَ : « إنَّ عبدًا للَّهِ خيَّره الله بينَ الدُّنيا وبين ما عنده فاختارَ ما عند اللهِ».

وفهمَ أبو بكرٍ كلامَ النبىِّ ﷺ ، وعرفَ أنه يريدُ نفسه فبكَى، وارتفعتْ حرارةُ الرسولِ ﷺ فاشتدَّ به الألمُ وجلستْ عائشةُ تقرأُ المعوذتينِ والأدعيةَ ، ثمَّ تصبُّ الماءَ فوقَ رأسه حتىَّ أحسَّ بخفةٍ فدخلَ المسجدَ وجلسَ على المنبرِ ، وخطبَ قائلاً:

« منْ كنتُ جلدتُ له ظهرًا فهذا ظهرى فليستقدْ (ليقتص) منه، وأوصى النبىُّ ﷺ بالأنصارِ خيرًا ، وأخذَ يرددُ : الصلاةُ وما ملكتْ أيمانُكُمْ ، وكانَ النبىُّ ﷺ رغمَ مرضه يصلِّى بالناسِ حتَّى زادَ ثقلُ المرضِ عليه ، فلمْ يستطعْ الخروجَ ، وكانَ كلما همَّ بالخروجِ أغمى عليه ، وحينَ أفاقَ قالَ : مرُوا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ».

وفى يومِ الاثنينِ ، خرجَ النبىُّ ﷺ عاصبًا رأسه إلى صلاة الصبح وأبو بكرٍ يصلى بالناسِ، فلمَا رآه المسلمونَ فرحُوا ، فتراجَعَ أبو بكرٍ للوراءِ حتَّى يصلى النبىُّ ﷺ بالناسِ ، فأشارَ بيدهِ أن أتمُّوا

صلاتَكُمْ ، وفِي ذلكَ اليومِ دعا النبيُّ ﷺ الحسنَ والحسينَ فقبَّلهما وأوصى بهما خيرًا .

رجعَ النبيُّ ﷺ فاضطجعَ فى حجرِ عائشةَ ، ودخلَ عليه رجلٌ من آل بكرٍ ، وفى يده سواكٌ أخضرُ . . نَظر النبيُّ ﷺ إلى السواكِ فقالتْ عائشةُ : يا رسولَ الله ، أتحبُّ أن أُعطيكَ هذا السواك ؟

قالَ : نعم ، فأخذتْه عائشة فمضغتْه حتَّى لَيَّنته ثم أعطته إياهُ ، فاستعملَهُ ثمَّ وضعه وشخصَ ببصرِه ، وهو يقولُ : « بلْ الرفيقَ الأعلى من الجنة » .

وصعدتْ روحُ الرسولِ ﷺ الطاهرةِ الزكيةِ إلى الرفيقِ الأعلى . . . فقالتْ عائشةُ : خُيِّرْتَ فاخترتَ ، والَّذى بعثكَ بالحقِّ .

تلقى المسلمونَ النبأَ المفجعَ ، فصاحَ عمرُ وكأنه لا يصدقُ : إنَّ رسولَ الله ماتَ وأخذَ يقولُ والله ما ماتَ ، ولكنه ذهبَ إلى ربِّه كمَا ذهبَ مُوسَى بنُ عمرانَ ، فقد غابَ عن قومِه أربعينَ ليلةً ثمَّ رجعَ إليهم بعدَ أنْ قيلَ : قدْ ماتَ .

وأقبلَ أبو بكرٍ فكشفَ عن وجهِ الرسولِ ﷺ الشريفِ وقبَّلَهُ ثمَّ غطَّى وجهَهُ وقالَ للنَّاسِ : أيها الناسُ ، إنَّ مَنْ كانَ يعبدُ محمدًا فإن محمدًا قد ماتَ ، ومَنْ كانَ يعبدُ اللهَ فإنَّ اللهَ لا يموتُ ، ثمَّ تلا الآية :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

أفاقَ عمرُ والمسلمونَ حينَ سمعُوا تلكَ الآيةَ ، وكأنهم لمْ يسمعُوهَا من قبلُ ، وأيقنُوا أنَّ النبىَّ ﷺ قدْ ماتَ ، وخَشِىَ الصحابةُ أنْ تحدثَ فرقةٌ بينَ المسلمينَ ، فبايعُوا أبا بكرٍ خليفةً لرسولِ اللهِ ﷺ ، وحاكمًا للمسلمينَ.

تمَّ تجهيزُ الرسولِ ﷺ وحُفِرَ تحتَ فراشهِ تمهيدًا لدفنهِ تنفيذًا لقوله : « ما قُبِضَ نبىٌّ إلاَّ دُفِنَ حيثُ قُبِضَ».

وتتابعتْ جماعاتُ المسلمينَ ، فصلَّى عليه المهاجرونَ ثمَّ الأنصارُ، ثم النساءُ ثم الصبيانُ ، ودُفِنَ جسدُ النبىِّ الشريفُ صلوات اللهِ عليهِ وعلَى آلهِ وسَلَّم.